تمهيد

إن أصل كلمة اغتراب في بيئة اللغة العربية " في لفظة الغرب ، ونعني الذهاب والتنحي والبعد كالغربة والغرب بالضم المروح عن الوطن كالغربة والاغتراب والغرب والاغتراب إتيان الغرب ، والإتيان بالغريب ، وإجراء الراكب فرسه إلى أن يموت ، والا معان في البلاء كالتغريب .

وتغرب : اتى من القرب ، وغرب : أي غاب كقرب ، وبعد ، واغترب تزوج في غير الأقارب .

والتغرب : أن تأتى ببنين بيض ، وبنين سود ضد : [1] ويكاد يتشابه أصل الكلمة في اللغة العربية مع أصلها في بعض اللغات الأخرى كالفرنسية والانجليزية المستمد من " الفعل اللاتينى Alienate بمعنى ينقل أو يجول أو يسلم ، أو يبعد وهذا الفعل مأخوذ بدوره من كلمة لاتينية أخرى هي Alienas بمعنى الانتماء إلى الآخر." [2]

والاغتراب قضية تزامنت مع نزول الإنسان إلى الأرض حيث اغترب عن وطنه الأول ; الفردوس[3] مما أوجد علاقة وطيدة بين الاغتراب والخطيئة ، هذه العلاقة تفسر سبب احتفاء البيئة الدينية بهذه القضية – الاغتراب – وسبب كونها أول بيئة تتوافر عليها بالتقنين والتفسير .

والاغتراب في البيئة الدينية هو انفصام الإنسان عن نفسه أثر تحوله إلى الكون[4] أو إلى النظام والمؤسسات ، وسائر الماديات الأخرى التي تلفته عن عالمه الداخلي .

وهذا المعنى الديني للاغتراب هو الأصل ، لذلك فهو وثيق الصلة بكل معاني الاغتراب في البيئات الأخرى للعلوم الإنسانية المختلفة فالجامع بين كل هذه المعاني : الصراع بين الذات الإنسانية و(الأخر) أيا كان هذا الأخر الذي

---

(١) د. حسن سعد . الاغتراب في الدراما المصرية المعاصرة . الهيئة المصرية العامة للكتاب . ١٩٨٦م . ص ٩

(٢) السابق ص . ٩

(٣) د. سيد عبد العال . سيكولوجية الاغتراب ، مجلة علم النفس . العدد الخامس . ١٩٨٨م ص ٤٠.

(٤) د. زكريا ابراهيم . المشكلة الخلقية . مكتبة مصر . الطبعة الأولى ١٩٦٩م . ص ٢٤٤ / ٢٤٥.

يهددها بالانفصام والهدم.

وكان ارتباط الاغتراب بخطيئة الإنسان الأولى مادة خصبة للقصص والأساطير[1]، إذ بدأت هذه الخطيئة وكأنها سعى إنساني ساذج إلى المفرقة التي انتهت بالاغتراب وكان المعرفة الإنسانية محكومة بالتعثر والمحدودية.

لذلك حين تدوول هذا المصطلح في البيئة الإسلامية اتخذ دلالة الجهاد ضد الداخل – النفس – والخارج معاً، كما اتخذ دلالة الاستعلاء والسمو الروحي ، وحين يقول الحديث الشريف أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا ، فإنه يربط هذا الدين القيم بمعاني الجهاد والتميز ويلازم أصحابه بالقوة .

كما أن الاغتراب في الإسلام درجات ، فهناك غربة المسلم تعلوها غربة المؤمن ، أما الاغتراب الرفيع فهو اغتراب العلماء ، المؤمنين[2].

ومع امتزاج العناصر غير القريبة بالبيئة العربية الإسلامية ، كثر مصطلح الاغتراب في مختلف ألوان المعرفة دالا على صراع العربي المسلم للثقافات الدخيلة والمجتمع الجديد ، وشعوره بالحيرة وانفصام الهوية :

وقد عانى الزهاد في هذا المجتمع الجديد من الاغتراب ، ووجدوا فيه مزيداً من المقاومة النبيلة للسائد، وزيادة في التقرب إلى السماء، وقد تند الهروى الانصارى الاغتراب إلى مراتب هي : الانفراد بالجسم والانفراد بالفعل ، والانفراد بالهمة [3].

كذلك لاقى الاغتراب الاهتمام في بيئة المتصوفة ، وحمل منهجهم في الوجود وهدفهم من الحياة ، في مجمل معانيه على كل (خارج) يمثل الإعاقة عن الاتصال بالذات الإلهية والذوبان فيها ، ومن ثم يمثل الإعاقة عن التوحد والكمال وإدراك الحقيقة والتخلص من ادران الجسد .

وقد احتفى ابن عرابى بمعانى الاغتراب في فتوحاته المكية [4] خاصة ما يتصل منها بالأمور الميتافيزيقية .

---

(١) د. فتح الله خليف . حديث من ندوة حول الاغتراب أدارتها مجلة عالم للفكر المجلد العاشر العدد الأول . ابريل مايو يونيه ١٩٧٩م. ص ١١٥ بتصرف

(٢) د. حسن سعد . الاغتراب في الدراما المصرية المعاصرة . ص ٢٢

(٣) د. فتح الله خليف . الاغتراب في الإسلام . مجلة عالم للفكر ز المجلد العاشر . العدد الأول . ١٩٧٩ م ص ٩٣ / ٩٤

(٤) د. محمود رجب .الاغتراب . منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٧٨م . ص ١٨١

وفى العصر الحديث لاقى الاغتراب مزيدا من الاهتمام والدرس حيث تعقدت الحياة الإنسانية وتشابكت قضايا الإنسان مع الوجود ، ومن ثم ازداد الوعى بمشاكل هذا الإنسان .

وقد بدأ هذا الاهتمام مبكرا في البيئة الغربية ، خاصة في الدراسات الفلسفية ، حيث درس هيجل الاغتراب في كتابة " ظاهريات الروح" [1] عام ١٨٠٧م وعبر به عن اغتراب الروح الإنسانية تحت وطأة الحضارة ن واعتنى بما في الاغتراب من دلالة الانتقال و" التخلي " أو ضياع الذات في بؤرة الجوهر الاجتماعي .

وكان الاغتراب هو المسمى الذي ارتضاه ماركس عام ١٨٣٢م حين عمد إلى ارساء فلسفة اقتصادية جديدة للتعبير عن الهوة بين الطبقات الاجتماعية وما تزرح تحته الطبقة العاملة من مشاعر سلبية كالرفض والتمرد والانفصال عن صاحب المال – الراسمالى – والعمل والمنتج معا.

وقد لخص المعجم الفلسفي كثيرا من دلالات الاغتراب ، حين عرفه بأنه تحول نتائج النشاط البشرى كمنتجات العمل والعلاقات الاجتماعية والسياسية وقواعد الأخلاق والنظريات العلمية وإشكال الوعي الاجتماعي ومعها الصفات والقدرات البشرية إلى أشياء مستقلة عن الإنسان ، غريبة عنه ، ومهيمنة عليه" [2]

ووجد علماء النفس والاجتماع أن الاغتراب في الغالب وليد الفترات الانتقالية التي يمر بها المجتمع الانسانى ، ففى هذه الفترات يتسيد الاضطراب الواقع ، وتهتز القدوة السياسية ، ويتأرجح الواقع الاقتصادي بين القمة والقاع هاويا بكثيرين إلى العدم والحيرة ، وتتعرض كثير من المعتقدات والثوابت الحقيقية للضياع ، حيث تبدو الإطاحة بها طوق النجاة السريع للكثيرين ، بينما تتربع صفوة قليلة فوق القمم الشاهقة عاجزة عن التكيف مع النظم الفاسدة،... والمغتلى للقمم الشاهقة يرى في الواقع " حائلا دون تحقيق أهدافه وتطلعاته ورغباته ، مما يدخله في مجال العزلة الاجتماعية"[3]

---

(١) السابق . ص ١٥.

(٢) المعجم الفلسفة المختصر ترجمة وفيق سلوم . دار التقدم ، موسكو ١٩٨٦م . ص ٤٨

(٣) د حسن سعد الاغتراب في الدراما المصرية المعاصرة ص ١٨

هذه العزلة تعبير عن العجز والضعف ، والهرب إلى الذات مستخرجا ما بها من طاقات ، أو ساترا ما بها من عيوب وآمال وآلام وضعف وعدم تكيف مع الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والديني ، وبالتالي الأخلاقي والعلمي [١]

و " الأتوميا" على حد تعبير الفلاسفة أو تلاشي المعايير – في تعبير اميل دوركايم عالم الاجتماع – هي القانون الوحيد في مثل هذا المجتمع المضطرب وحين يفقد القياس والمنطق ، يلجأ الإنسان إلى الحلم ، لذلك عبر شيللر – في مجال علم النفس – بالاغتراب عن الانقسام الذات الإنسانية بين الواقع والمثال[٢]

وإذا كان الانغماس في المجتمع يمثل ضياع الذات واضطرابها ، فإن التميز والتفرد اغتراب أيضا لانه يعني وجود نواقص معرفية بين الفرد والمجموع [٣] أي وجود فجوة بينهما ، فطبقة العلماء والمفكرين أكثر الناس تعرضا للاغتراب حيث يكونون أكثر قدرة على الرؤية والنقد والتقييم ، واكثر استجابة لصورة المجتمع البديل الذي يندفعون إلى تحقيقه بطرح قيم بديلة[٤] لا يستجيب لها المجتمع المحيط في الغالب الذي يغلق أمامهم باب الحرية الحقيقية و" التفكير التساؤلي الحر الذي يقوم على الحوار المفتوح بين الأنا والآخر [٥] والذي هو اول لبنة في بناء التغيير أو الإصلاح .

وامتياز الشخصية في رأى كثير من الفلاسفة – ومنهم نيتشه – يقاس بقدرة الشخصية على العزلة ومدى اقبالها عليها ، حيث أدرك صاحب هذه الشخصية ذاته " واختبر عمق الحياة الباطنية وادرك تفاهة الانغماس في حياة المجموع ، فهو لا يريد أن يهبط بنفسه إلى مستوى الوجود المبهم الفعل الذي

---

(١) د. قيس النوري . الاغتراب . مجلة عالم الفكر . المجلد العاشر . العدد الأول ١٩٧٩ ص ١٨/١٧

(٢) د. محمود رجب . الاغتراب . ص ١٠٤

(٣) حسن سعد . الاغتراب في الدراما المصرية ص ١١ .

(٤) د. قيس النوري الاغتراب . مجلة عالم الفكر المجلد العاشر العدد الأول ١٩٧٩ ص ١٧ ، ١٨ .

(٥) محمود رجب . نحن وظاهرة الاغتراب مجلة الفكر المعاصر عدد ٥٠/ ابريل ١٩٦٩م . المؤسسة المصرية القامة للنشر ص ٨٦

ليس فيه سر ، ولا نحفظ ولا تباعد ولا بعد ، ولا بعد داخلي "[1]

فالشخصية بطبيعتها تتصارع مع الوجود المادى لأنها " تفترض الفعل الخالص والانتصار على الذات ، الشخصية روح ، وهى على هذا الأساس مضادة للشيء ، والعالم والأشياء ... عالم الظواهر الطبيعية "[2] لأنها في هذا العالم مهددة بالابتذال والسقوط ، كما أنها بانفصالها عن هذا العالم مهددة بالتمركز حول الذات .. في تعبير نيقولاى بردياتيف -[3] أي الاغتراب أيضا .

وقد رأى كثير من علماء الاجتماع والنفس في الصلات الاجتماعية حياة روحية حقيقية تحفظ الفرد ، وكان " اميل دوركايم على رأس أصحاب هذا الرأي ، مؤيداً أصحاب الفلسفة المثالية والماركسية [4] وكان " العقد الاجتماعي " لجان جاك روسو محاولة لتنظيم رؤيته لهذه العلاقة بين الأنا والوجود العينى .

وكما كان التميز والتفرد طريقا للاغتراب يكون النقص أو العجز طريقاً رئيسياً له ، ويؤكد يونج أنه " قد يجئ" الشعور بالنقص فيضاف إلى هذا القلق الزائد بالأمن ، وعندئذ يكتسب العالم الخارجي في نظرنا طابع الخطر المحقق أو التشويه المحتمل أو البتر الممكن"[5] والعجز مجال مفتوح لشعور الفرد بانعدام الثقة في الذات ، وانعدام القدرة على التكيف مع الخارج أو مواجهته مواجهة صحية.

والإنسان قبل الاغتراب كان في وضعه الصحيح ، يفكر في ذاته ، ويفكر في وجوده وصفاته وفى حياته ، وفى مجتمعه ، فإذا استعصى عليه الفهم ، وإذا ما شق عليه التكيف مع الطبيعة فمن هنا يبدأ الاغتراب " [6].

ولعل اغتراب الذات أن يكون محصلة طبيعية لكل أنواع الاغتراب

---

(١) د. زكريا ابراهيم . مشكلة الإنسان . ص ٢٦ ، ٢٧

(٢) نيقولاى بردياتيف العزلة والمجتمع . ترجمة فؤاد كامل مراجعة على أدهم الهيئة المصرية العامة للكتاب . ١٩٨٢م /ص ١٥٠.

(٣) العزلة والمجتمع ص ١٥٢

(٤) مشكلة الإنسان ص ٣٩ ، ٤٠

(٥) السابق ص ٢٤ ، ٢٥

(٦) حسن حنفى . ندوة حول الاغتراب مجلة عالم الفكر المجلة ١٠/ العدد الأول ١٩٧٩م /ص ١١٦

السابقة التي وصفت انفصال الفرد على المجموع ، والاغتراب في الذات بتعبير فلسفي " وهو يحمل تعريفاً ميتافيزيقيا يعني ذلك الذي لا يمتلك ذاته ... واغتراب النفس من وجهة نظر اريك فروم و" هورني" يتضمن انعدام الصلة بين الفرد وجزء حيوى وعميق من نفسه أو ذاته[1] .

الاغتراب في الفلسفة الوجودية :

وقد اختلف تناول الفلسفة الوجودية للاغتراب عن تناول الفلسفة السابقة عليها ، بل عن تناول علم النفس والاجتماع ، وسائر العلوم الإنسانية الأخرى له حيث كان المبدأ أو القانون الذي يحتفى به أصحاب هذه الفلسفة وهو قولهم ان الوجود يسبق الماهية ، - كان هذا القانون الفلسفي – حاكماً لكثير من آرائهم ونظراتهم إلى أمور الحياة ، وكان دافعهم إلى الحفاظ على (الوجود الأصيل) للذات والتفرقة بينه وبين الوجود الزائف.

والوجود العينى في نظر كثير من الوجوديين يهدد لوجود الأصلي ، لذلك فالعزلة احدي دروع الذات، وهى ترجع إلى أصل متيافيزيقى في صميم الطبيعة البشرية والماهية الإنسانية لذلك – وكما يرون فان معظم لغات البشر تحوى في قاموسها تعبير عن الوحدة والعزلة والانطواء والتأمل ، والاستبطان ، والتفكير العقلى ، والضمير ، والوعى الفردى [2] وعلى النقيض من الرؤية الخاصة للوجود العينى ، يرى بعض رجال الفلسفة الوجودية أن الـ الروحية العميقة والوجود الأصايل ، يكمن في إقامة الصلات الاجتماعية الصحيحة ومن هؤلاء هيدجر وهوسرل ، والوجودى اليهودي"بوبر" ،وقد رأى هيدجر أن خلق الإنسان الأصلي إنما كان في صورة (أنا / أنت) أو "هو / الآخر " محاربا بذلك مقولة سارتر الشهيرة بأن الجحيم هو الآخرون [3] وقد حاول فريق من الوجوديين توسط هذين الرأيين [4].

ولعل الاختلاف الأساسي بين نظرة الوجودية إلى الاغتراب ونظرة

---

(١) حسن سعد الاغتراب في الدراما المصرية المعاصرة / ص ٢٠ / ٢١
(٢) د. زكريا ابراهيم . مشكلة الإنسان ص ٣١
(٣) جون ماكورى الوجودية ترجمة د أمام عبد الفتاح سلسلة عالم المعرفة رقم ٥٨ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب / الكويت / ص ١٥٢ .
(٤) نيتولاى برد بانيف العزلة والمجتمع ص ١٠٧

سائر الفلسفات والعلوم السابقة عليها يكمن في أن الأخيرة ترى إمكانية علاج الاغتراب ، حيث رأى الماركسيون وعلماء النفس " أن الاغتراب ظاهرة عرضية تنشأ في ظروف نفسية وفي ظروف اجتماعية وفي أوضاع اقتصادية يمكن تجاوزها ، ويمكن العودة إلى الموقف الشرعي للإنسان إذا ما استحوذ على نتائج عمله ، وإذا ما وجد في مجتمع وفي نظام له فيه دور في صنعه ، وفي أخذ القرار ، ويمكن عن طريق المحللين النفسيين العودة بالإنسان من خلال تذكر ماضيه واكتشاف ذاته ، وبالتالي الوصول إلى علاقات اجتماعية سوية" (١) .

أما الوجودية فإن الاغتراب عندها ميتافيزيقي الأصل ، وليس مرتبطا بالوجود العيني في جوهره ، بل مرتبط بطبيعة خلق الحياة ، فهو " داخل في صميم الوجود الإنساني ، داخل في نسيج الإنسان ، نحن مدانون بالاغتراب ، ومهما حاول الإنسان من خلال الحرية، ومن خلال إحساسه بالزمان ومن خلال علاقاته الاجتماعية ، ومن خلال علاقاته الاجتماعية ، ومن خلال العمل ، أن يتجاوز أو أن يشفى من الاغتراب ، فإنه سيموت مغتربا لأن الحياة نفسها اغتراب(٢) .

ولعل منشأ الاغتراب في الفلسفة الوجودية هو هذا الصراع بين تناهي الإنسان وامتداد الكون ، فقد رأى سرن كيركجورد - أبو الوجودية - أنه لا يوجد أي حل عقلي أو بشري لمعضلة الوجود البشري ، فليس ثمة حل بشري لأن تناهي الإنسان وخطيئته يجعلان من المستحيل عليه أن يصل إلى خلاصه الخاص، وليس ثمة حل عقلي لأن مفارقة الوجود البشري لا يمكن حلها بمقولات عقلية(٣)

ولأن المعنى الميتافيزيقي للاغتراب هو المعنى الأول له - حيث ارتبط بنزول الإنسان إلى الأرض تاركا الفردوس فقد تداولته الأديان بالدرس والتفسير ، وأفادت الوجودية من هذا التناول ، حيث نرى أن " الإثم والتحول والمسئولية والبحث عن وجود إنساني بمعنى الكلمة والاغتراب بحقيقة الزمان والتاريخ كانت كلها موضوعات تحتل مكانا مرموقا في تعاليم الأنبياء ، وهي

---

(١) حسن حنفي . ندوة الاغتراب مجلة عالم الفكر ٦ ص ١١٦.
(٢) حسن حنفي ندوة حول الاغتراب مجلة عالم الفكر ص ١٣٦
(٣) جون ماكوري . الوجودية ص ٣١٣.

كلها موضوعات على جانب كبير من الأهمية عند الفلاسفة الوجوديين "[1] .

ومحدودية المعرفة الإنسانية أول عوامل الاغتراب في هذه الفلسفة التي ترى أن أهمية المعرفة الإنسانية أعمق من مجرد إشباع للفضول ، فهي في حقيقتها محاولة معرفة المصير ، ومحاولة السيطرة على الفوضى وما يسود الوجود من ظلمات وباختصار السيطرة على العالم نظرياً وعملياً على السواء بممارسة الملكات الإنسانية الخاصة بالابداع والتطبيق [2]

العامل الثاني للاغتراب في الفلسفة الوجودية ما تعتقده هذه الفلسفة من تغلغل الشر في نسيج الكون وهيمنته على الوجود الانسانى فتقول " نحن نشعر في كل لحظة بأن جذور الشر متأصلة في اعماق الوجود ، لأن الحيوان يتألم والإنسان يشقى والعالم يفنى والوجود كله " على حد تعبير شوبنهور يخلق في ضباب العدم الكثيف ، وليس التأمل الفلسفي نفسه سوى ضرب من الدهشة الأليمة لأن كل ما يدفعنا إلى التفلسف إنما هو أداركنا لما في الوجود من ألم وشر أخلاقي"[3]

والزمان وعاء . الأحداث وعاء الشرور وقمة هذه الشرور الميتافيزيقية في الفلسفة الوجودية وإذا كان الزمان يشكل البعد الرابع للخلق في الفلسفات المختلفة، فهو في الوجودية سابق على المكان، متمخض عن كل ما يحيط الإنسان من أحداث، وهو التعبير وطريق الإنسان إلى التحول لأنه "تغير عن طريق ارتقاء الحياة وتغير عن طريق الموت"[4] وقد اختلف موقف الوجوديين وتنوع أمام الزمان، فأعرض برجسون عن الماضي والمستقبل، واعتبر الديمومة تحديا للزمان[5] أما هيدجر فقد اعتبر الزمان احد الدواعي المنطقية للقلق الوجودي الحاد معانيا الجانب السلبي للزمان نافيا أمكان (الإمكانية) فيه على العكس من برجسون، كذلك عانى القديس أوغسطين هذا الجانب السلبي للزمان ناظرا إلى جانبه العدمى، اما بروست فقد تمثل _ على الصعيد الابداعى - في الذاكرة الإنسانية مناوئا للزمان، ورأى بعض الوجوديين

---

(١) جون ماكوري - الوجودية / ص ٥٢.
(٢) نيقولاى بردياتيف . العزلة والمجتمع / ص ٧٥ .
(٣) د. زكريا ابراهيم . مشكلة الإنسان . ص ٩٣ .
(٤) نيقولاى بردياتيف . العزلة والمجتمع . ص ١٢٣.
(٥) السابق / ص ١٢٣.

أيضا في المعرفة خلاصا، أو كما علمهم أفلاطون "انتصارا على دولة الزمان"[1]

والزمان طريق الإنسان إلى الموت، والموت موضوع قديم في الوعي البشرى قدم الحياة، وقد ارتكزت الانثروبولوجيا في التفرقة بين الإنسان والحيوان على وعى الإنسان له ومولجهته له"[2]

ويكاد جميع الفلاسفة يفتقرون إلى الوعي بايجابية الموت حيث يرى بعضهم أن "حتمية الموت أفسدت الفرح الانسانى" [3] ويقول رلكة أن "في مشيتنا دائما ما ينطق بأننا في طريقنا للرحيل، وربما كان عدم البقاء هو المعنى الأوحد لهذا الوجود"[4] ويرى شوبنهور أن الحكيم الحق، هو من نظر إلى الموت والحياة معا دون اكتراث"[5]

أما في الفلسفة الوجودية فقد رأى كارل يسبرز في الموت حائلا دون الاكتمال والتحقيق، ورآه في ذات الوقت تحريرا للإنسان من ربقه الحياة وربط هيدجر الموت بالهم الانسانى، ورآه حدا من الحدود الفاصلة بين الحياة البشرية وسجونها، فهو "عدم إمكان اى وجود بشرى على الإطلاق" الموت هو آخر الممكنات جميعا هو الإمكان الذي يجعل بقية الممكنات ـ أيا كان نوعها ـ غير ممكنة"[6]

والموت في الفلسفة الوجودية هو الدافع للسقوط Falling أو الاستغراق في الأخر، والانغماس أو الهرب في طرائق العيش المختلفة.الموت في هذه الفلسفة يهدد القانون الاساسى الذي نسعى من اجل تحقيقه وإثباته، وهو الحرية الإنسانية التي تمثلوها في قولهم أن الوجود يسبق الماهية، فالموت إيقاف لهذه الحرية : أن الإنسان لهو في الأصل" موجود طبيعي، ولكنه بين كائنات الطبيعة جميعا أشدها حنينا إلى التخلي عن جبرية الظواهر، وأقواها نزوعا نحو

---

(١) نيقولاي بردبانيف ـ العزلة والمجتمع /ص ١٣١.
(٢) جون ماكورى - الوجودية . ص ٤٧ ، ٤٨
(٣) هنرى بيير الأدب والفلسفة في فرنسا . ترجمة يوسف عيد المسيح . مجلة الثقافة الأجنبية ، دائرة الشئون الثقافية والنشر ، وزارة الاعلام والثقافة / العدد الثاني السنة الرابعة / ١٩٨٤ م، ص ١٤.
(٤) مشكلة الإنسان ص / ١١٦.
(٥) فؤاد كامل . الفرد في الفلسفة شوبنهور . دار المعارف / ١٩٦٣م ، ص ٨٥.
(٦) د. زكريا ابراهيم . مشكلة الحرية ، مكتبة مصر /ص ٣ التصدير.

(التحرر) من اسر الضرورة، وعلى الرغم من أن الإنسان هو الموجود الوحيد الذي يشعر بأنه حر فانه الموجود الوحيد الذي لا يكف عن تكذيب شهادة شعوره واضعا وجوده نفسه موضع التساؤل، ومن هنا فإننا ما نكاد نتحدث عن مشكلة الحرية حتى يتمكنا دوار عقلي عنيف، فإننا نعرف أن هذه المشكلة هي مشكلة الإنسان في صراعه مع الطبيعة والمجتمع والماضي ...، وقد حاول الإنسان أن يحطم هؤلاء الاغيار، حتى يثبت لنفسه انه حر، فلم يلبث أن وجد نفسه وحيدا لا تستند حريته إلى شئ، ثم خيل إليه أن لديه من الإرادة ما يستطيع معه أن يبرهن عمليا على حريته ، فسرعان ما وقع فريسة لإرادة الفناء التي هي قضاء على كل إرادة[1]."

وربما يمثل الموت لبعض رجال الفلسفة الوجودية طريقا للحرية - كما رأينا عند كارل يسبرز - فألبير كامى يرى أن الحرية هي التحرر من حب الحياة، وهى تجرد الحياة أيضا من المغزى [2]، ولعل الموت هو الوحيد القادر على تشذيب التعلق الانسانى بالعمر، وعلى تشكيك أصحاب هذه الفلسفة في مغزى الحياة.

وليس فقط أصحاب هذه الفلسفة ، بل أن كل من عانى الحياة وحرم منها حين يعمد إلى تأملها وتفسيرها، يرى في تدريب النفس على البلادة واللامبالاة ورفض للحياة - يرى في ذلك - تدريبا على القوة ومزيدا من السمو والانتصار.

وقد صنف الوجوديون الجبرية - كما يرونها إلى جبرية البواعث وجبرية العلل ، أو بتعبيرهم الثاني ، جبرية المادة أو الجسد [3]، وجبرية الروح ، وراى سارتر أن وراء الاعتقاد بالجبرية باعث نفسى هو الخوف من تحمل المسئولية : مسئولية الحرية، وقد أطلق على هذا الخوف مسمى " الحصر النفسي" [4](ورآه مهيمنا على الوجود الانسانى كله، وكذلك تنبه الوجوديون إلى أن الحرية المطلقة - وهى غير ممكنه بالطبع - يستتبع الشعور بها كثيرا من المشاعر الاخرى السلبية ، كضياع الذات ، وافتقاد كل معانى الانتماء ،

---

(١) د زكريا ابراهيم مشكلة الحرية ص ٣ التصدير بتصرف
(٢) رمسيس يونان البيركامى أو شرف الإنسان مجلة الهلال يونيه ١٩٦٧/ص ١٠
(٣) مشكلة الحرية ص ٧٠
(٤) د زكريا ابراهيم مشكلة الحرية /ص ١٨٥

والشعور بجدوى الفعل مما يوصل إلى التشاؤم المطلق ، او اقصى التشاؤم[1]

مشاعر الاغتراب والوجودية

وقد تأثر الوجوديون بمقولة التشاؤم عند شونهور ، ورأوها نتيجة حتمية لموقفهم الانطولوجي فبعضهم أن مشاعر مثل القلق والضجر أو الملل والغثيان هي المشاعر انطولوجية أولية ، وانها تكشف عن الوضع البشرى في جوانبه المعتمة ، فالإنسان لا يكون في بيئه في العالم الذي يحمل طابقا غريبا ، بل ومهددا له[2]

وكان الإيمان بالعدم مركز مشاعر الاغتراب الوجودية ، وهى سلبية في غالبها ، فناء بعضهم بمشاعر القلق الوجودي . ، و هو مارتن هيدجر - ورآه قمة السجون الإنسانية ، أما الشعور بالعبث فهو لديهم " لا يرجع إلى ما قبل سليمان الحكيم ، ولكن هذه الحكمة كانت تتخذ في الغالب نهاية على اختلاف نظرتهم إليه - عدم إمكانية إدراج الوجود تحت مقولات عقلية كافية[3] وقد لخصوا مصادره في أربع طرائق مختلفة أولا : للطبيعة الآلية لحياة عديد من الإفراد ، ويستمد العبث مصدره الثاني من الإحساس الحاد بمرور الزمن ثالثا · من الإحساس بالانعزال في عالم الاغتراب يشعر به الناس بدرجات متفاوتة ، وأخيرا يمكننا معاناة العبث عن طريق الإحساس الحاد بانعزالنا جوهريا عن غيرنا من بني الإنسان .[4]

فالعبث أذن هو الشعور باستعصاء ظاهر الكون على منطق العقل الانساني ، أو تصادمه مع قوانين هذا العقل المحدود معرفيا

والألم أحد أهم مشاعر الاغتراب في الفلسفة الوجودية ، وهم يرونه لصيقا بالجنس البشرى ، ويكاد يميزه عن غيره من الكائنات الحية ن وكثيرا ما ينبعث الألم الوجودي من تعقد الحياة وتشابك المظاهر الحضارية [5] التي تخلق حاجزا بين الإنسان وذاته ، وبينه والمجموع. لكن للألم وجه ايجابي هام هو

---

(١) السابق /ص ١٨٥
(٢) جون ماكورى . الوجودية /ص ٢٣٧.
(٣) رمسيس يونان . الييركامى أو شرف الإنسان مجلة الهلال يونيه ١٩٦٧م /ص ٩٧
(٤) جون كروكشانك الييركامى وادب التمرد /ص ٨٨
(٥) د زكريا ابراهيم المشكلة الحلقية ص ٢٤٨

إثراء الحياة الباطنية والعاطفية أو الروحية فهو يسمو بالنفس إلى آفاق لا يدركها من لم يعان إلا السطح، هذه الحياة الباطنية الجديدة تعرفها الفلسفة بأنها (خبرة الألم) لذلك صنف برديانيف الألم إلى مراتب أعلاها التخلص من عشق الحياة ورآه الما جديراً بالنفوس العالية .

وعلى الرغم من أن اليأس أحد النتائج الشعورية للاغتراب ، إلا أنه عند بعض الفلاسفة دليل استشعار قيمة الحياة لأنه ليس سوى الواجهة الخلفية لما اصطلح على تسميته باسم انفعال الموجود بالحياة ، أو تعلق الكائن البشرى بالوجود" (١)

وكان التمرد الوجودى أحد وسائل مقاومة الوجود الزائف ، أو الوجود المقترب، وقد تبنى البيركامى الدعوة إلى التمرد ، وصنفه إلى تمرد ميتافيزيقى (أى تمرد على كونى إنسان) ، وتمرد تاريخى (أى على كونى عبد) وعلل تمرده بافتقاد العلة الغائية للوجود، وشعوره بحتمية الموت .

وكانت القيمة الأساسية للتمرد هي رفض الوجه الواحد للكون ، رفض الوضوح الثابت ، وقد حاول كامى أن يضع قيما اخرى للتمرد يحقق من خلالها ايجابية الفلسفة الوجودية – أى التحكم في الماهية – وكانت أول هذه القيم : التفوق على قدر الانسان ، التعالى فوق مشاعر الحزن والألم " فسيزيفوس ملك كورنت الذي قضى عليه أن يدفع الصخرة إلى أعلى التل ، يمشى باشتخار على سطح التل منحدراً ليواصل أداء مهمته التي فرضتها عليه آلهة غيورة ، أو كون عديم الاحساس ، أنه متفوق على قدره ، وهو أقوى من صخرته ... وليس من مصير يستطيع مناجزة السخرية ، أن مجرد النضال ضد المرتفعات يكفى ليملأ قلب الإنسان بالمسرة" (٢) بما يدفع الإنسان إلى أن يكشف قدرات ذاته وطاقاتها ، ... أما القيمة الثانية للتمرد عند كامى فهى قوله:" انا أتمرد أذن نحن موجودون" وهى التضامن الانسانى "(٣)

وقد وجد أندريه مالرو طريقا اكثر ايجابية للتمرد بحيث لا يحتاج إلى العنف والايذاء هو طريق الابداع والخلق الفنى ، إذ به يستطيع الاستغناء عن الموجود والاستعاضة عنه بعالم أكثر اشراقا " ولا يمكن لهذا التمرد أن يدمر

---

(١) السابق . ص ٢٧٧/٢٧٨.
(٢) مجلة الثقافة الأجنبية . العدد الثاني السنة الرابعة ١٩٨٤م /ص ١٥
(٣) جون كروكشانك . البيركامى وأدب التمرد /ص ١٥٢

العالم الذي يسعى إلى نبذه ، ولكنه يستطيع – على الأقل أن يخلق عالما من الأنماط والمثل يتفق مع آماله وأمانيه[1]

وربما كانت الوجودية المؤمنة الواجهة المعتدلة للفلسفة الوجودية ، وتكاد مقولاتها عن الإنسان أن تكون أقرب إلى السماء ، أو إلى مراعاة العلاقة السامية بين الإنسان والخالق ، وبين الإنسان والوجود كله وهي لا تسعى إلى تحطيم هذه العلاقة بل تحاول بالفعل عن طريق الصلة الصحية بالسماء، تحقيق المبدأ القائل بأن الوجود يسبق الماهية ، أى تحقيق مبدأ ارادة الإنسان وقدرته على الاختيار والفعل دون شطط منها أو مغالاة تصل إلى تألية الإنسان ، بل هي تسعى إلى هذا بما يتفق مع منظومة الإنسان.

لذلك تكاد تخلو مقولات الوجودية المؤمنة – والمتمثلة في مسيحية كيركجورد – من تلك الزوابع الشعورية والصرخات العاطفية التي يزعم أصحابها من الوجوديين أنهم يسعون بها لتحقيق ماهية الإنسان ، بينما هي توهن قوى هذه الماهية وتوصلها إلى القنوط والعدمية وكافة المشاعر السلبية ، وتجعلها غافلة عن غاية الحياة ، وعما اعطيت من قيم وقدرات وميزات وما وهبت من كرامة وسعة وقدرة.

وقد رأت الوجودية المسيحية أن مقاومة القلق يسيرة إذا حاول الإنسان التوسط بين صفات الجسد والنفس وانه تنبغي عليه هذه المحاولة لأنه إنسان ، وهذا اللقب ملئ بالنبل والمسئولية والقدرة .

ان الوقفة غير القصيرة عند ماهية الاغتراب في الفلسفة الوجودية يبررها أولا احتفاء هذه الفلسفة بموضوع الاغتراب ، وتوفرها عليه بالشرح والاهتمام مما يتيح لنا الاطلاع على ماهيته وأنواعه وطبيعة مشاعره أو نتائجه الشعورية .

ثانيا يبرر وقفتنا عند هذه الفلسفة ما نستشعره من اوجه شبه بينها وبين الشعر ، وأن ماهية الاغتراب لديها اقرب إلى أن تكون ماهية شعرية سواء فيما يخص عوامل الاغتراب أو مشاعر الاغتراب أو طريقة للتعامل الشبيهة بالتناول الشعرى والنظر بعين الشاعر المحتفن المحتفى بذاته ، الرزاح تحت انفعالاته أكثر من عنايته بالمنهج العقلى والتقنين الفلسفى واذا كان الفيلسوف لا

---

(١) جون كروكشانك . البيركامى وادب التمرد / ص ٢٠٩

يعاني العالم ، - أو هو لا يعانيه حال وضعه للمنهج والنظرية - فإن هذه الفلسفة لم تتوفر لها هذه الصفة حين تناولت الاغتراب ، فكانت أقرب إلى مجال الشعر " الوجودية أقرب الفلسفات إلى الشعر ، والشعر أقرب الفنون إلى الوجودية ، فالشعر والفلسفة صورتان للتعبير عن الأنية ، والوجود إمكان وآنية معا ، ولهذا كان الشعر والفلسفة متكاملين .ولا غنى للواحد عن الآخر" (١)

وطبيعة الشاعر طبيعة مغتربة في عمومها ، فالاغتراب جزء من تكوين الشاعر لأنه مفطور على حساسية فائقة ، ونظرة خاصة إلى الأمور ، واحساس بدقائق الأشياء والملامح الانسانية ، وهو يستشعر اقل شيء ينتمي للقبح واقل شيء ينتسب للجمال والتناسق ، لذلك يبدو لغيره من الناس قلبا ، رهنا للاهواء ومزاج الالهام الشعرى كذلك هو لا يستطيع الاتصال الكامل بالحياة أو المجتمع المحيط ولا يستطيع الانفصال الكامل، هو يتصل على نحو شعرى ، يقيم علاقات مع الواقع بالقدر الذي لا يخدش كيانه الشعرى ولا يجعله ينصرف عن تكوينه الخاص وعالمه الفريد ، وهو ينفصل بالشكل الذي لا يشكل خطرا على ذلك الجزء من نفسه ، ذلك الجزء البشرى المألوف العانش على العلاقات الانسانية ، والشاعر مغترب لأنه نتيجة قدرته على الربط بين الأشياء واستكناه مدلولاتها ، هو أكثر الناس سعياً إلى تكوين واقع آخر غير مرئى ، وهو طامع في هذا الجديد ما عاش ، غير قانع ابدا.

الاغتراب في الشعر الرومانسى :

واذا كانت الفلسفة الوجودية واضحة الاعتناء بالاغتراب وقضاياه من بين كثير من الفلسفات الأخرى، فإن الشعر الرومانسى ، يبدو أكثر أنواع الشعر صلة بالاغتراب حيث تكون طبيعة الشاعر هنا أكثر احتداما وشغلا بالذات ، وحساسية في معاملة الخارج ، واعتناقا لمبدأ اليوتوبيا.

وغربة الرومانسى " غربة بلا باعث خاص لها وكآبة بلا تبرير لعلهم مكتئبون لأنهم وجدوا كما يقول بودلير ، ويكتئبون أكثر لأنهم مازالوا موجودين ، وأيا ما كانت البواعث الظاهرة التي يعللون بها العاهة المستديمة المتيافيزيقية الماورائية من عدم رضاهم عن الوجود كما هو وعن قصور الإنسان في

---

(١) د. عبد الرحمن بدوى . الإنسانية والوجودية في الفكر العربي مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٧م /ص ١٠٧.

المعرفة ، وعجزه عن التعبير عنها ، ومن وهن قوته وهبائيتها وامتناعها من الفعل الفاعل ، ومن كون الإنسان وجد مستعبدا من ذاته بالحاجات اليومية والضرورات والغرائز ، ومن الزمن الذي يبدع الصيرورة ، ومن كون الإنسان مائتا ، وكل شيء حائل في الوجود"[1]

وبذلك تتشابه ماهية الاغتراب في الفلسفة الوجودية مع ماهيته ، وفى الشعر الرومانسى حيث تنطلق عند كل منهما من العامل الميتافيزيقى ، فإذا كانت الوجودية قد رأت مصدر الاغتراب في وجود الإنسان عامة عن الأرض فإن الرومانسية استشعرت كذلك آلام الغربة المكانية للانسان [2] في بعده على وطنه الأول الفردوس – مقتربة من المعنى الأصلى للاغتراب في البيئة الدينية – يقول أبو القاسم الشابى في قصيدة " صوت تائه"

شردت عن وطنى السماوى الذي ... ما كان يوما واجما مضموما
شردت عن وطنى الجميل أنا الشقى ... فعشت مشطور الفؤاد بينما
في غربة روحية ملعونة ... لشوقها تفضى عطاشا هيما
يا غربة الروح المفكر أنه ... في الناس يحيا سائما مسئوما
شردت للدنيا وكل تائه ... فيها يروع راحلا ومقيما
يدعو الحياة فلا يجيب سوى الردى ... ليدسه تحت التراب رميما
وتظل سائرة كأن فقيدها ... ما كان يوما صاحبا وحميما[3]

ولعل الشاعر فوزى المعلوف خير نموذج للرومانسى المستشعر وطأة العالمين : الأرض والميتافيزيقى معا ، حيث لنكر انتساب الشاعر للأرض بما فيها من فساد ودناءة مؤثرا الموت الذي يعود به إلى وطنه الأول يقول :

ليت شعرى ما الشاعر ابن لهذه ... الأرض إلا بلحمه وعظمه
فإذا اختار هجرها برضاه ... اقما جاءها برغمه
هو منها ، وليس منها فمازال ... غريبا بين أبناء أمه
هو بالرغم منه من عالم الأرض ... وأن كان تزيا بشكل أبناء جنسه

---

(١) إيليا الحاوى . الرومانسية / دار الثقافة بيروت ١٩٨٣م الطبعة الثانية م ص ٢٠٧.
(٢) د. محمد غنيمى هلال . الرومانسية . دار النهضة . بيروت ١٩٧٣م ، ص ٥٦.
(٣) أبو القاسم الشابى . ط اغانى الحياة " . دار الكتب المشرقية بمصر / سنة ١٩٥٥م / . ص / ٨١ ، ٨٢.

سكن الأرض مرغما ، وهو لـو خير ، ما اختار غير ظلمة رمسه [1]

ولأن اغتراب الرومانسي ذو أصلى متافيزيقي ، ولأنه يشعر بوطأة وطنه المستوى – الأول – لا يستطيع الرومانسي أن يأتلف مع الأرض ، مع مادة الواقع وهو دائم التبرم بها والشكوى منها ، والامتثال لليقين الذي يملؤه بأن الاتصال بهذا الواقع المحيط محال ، حيث كل منهما ذو طبيعة تنفر من الآخر ، كما أن الواقع في عين الرومانسي أيا كان مهترئ مقزز غير منتظم ، يقول الشابى في قصيدة الأشواق التائهة :

يا صميم الحياة ، كم أنا في الدنيا غريب اشقى بغربه نفسى
بين قوم ، لا يفهمون أناشيد فؤادى ولا معانى نفسى
في وجود مكبل بقيود تائه في ظلام شك ونحس [2]

ويقول كذلك في قصيدة " إلى الله "

أنت انشأتنى غريبا بنفسى بين قومى في نشوتى وانتباهى

لذلك يكثر طلب الوحدة والعزلة في الشعر الرومانسي ، حيث يرى الرومانسيون في الامتزاج مع الواقع تشويها لعنصرهم المميز وتنافرا مع طبيعة الشاعر ذاتها ، والشابى أيضا يحتفى بهذه القضايا في ديوانه " أغانى الحياة"[3] فيقول قصيدته " احلام شاعر " .

ليت لى أن اعيش في هذه الدنيا سعيدا بوحدتى وانفرادى [4]

وهو يذكرنا بقول بشار بن برد

مولعا بالخلو مما ألاقي أحسب العيش أن أكون الوحيدا[5]

ويقول الشابى أيضا :

واود ان أحيا بفكرة شاعر فارى الوجود يضيق عن أحلامى

---

(١) فوزى المعلوف / على بساط الريح دار صادر بيروت ١٩٥٨ ص ١٥٠.
(٢) " اغانى الحياة " . ص ١١٢ ، ١١٣.
(٣) " اغانى الحياة " ص ٩٩.
(٤) " اغانى الحياة " ص ١١٥.
(٥) ديوان بشار بن برد / الجزء الثاني / ص ١٨٧.

الا إذا قطفت لسبابي مع ... الدنيا وعشت لوحدتي وظلامي
في الغاب وفي الجبل البعيد عن الورى ... حيث الطبيعة والجمال السامي
وأعيش عيشة زاهد متنسك ... ما أن تنفسه الحياة بذام
هجر الجماعة للخيال تورعا ... عنها وعن بعطش الحياة الدامي[1]

الرومانسية تعبير عن الغربة وعن الانفصال بين المجالين الموضوعي والداعي للحياة [2]

والرومانسي لا يستشعر الشر في المجتمع فقط ، بل يراه نسيج الحياة لذلك فالإنسان في رؤية الرومانسي مجبر ، حيث أتى إلى وجود غاص بالشرور لا يملك معه إصلاحا وتغييرا ولا يستطيع النجاة منه ، وهنا نجد كثيرا من الشعراء الرومانسيين مستأثرين بروح أبي العلاء المعرى – وقد تأثروا أيضا به في نظرتهم إلى المجتمع كما نرى في الأبيات الشعرية السابقة خاصة لأبي القاسم الشابي - ويبرز هذا التأثر بوضوح في شعر مدرسة الديوان - عند عبد الرحمن شكرى وعبد القادر المازنى والعقاد ، ... وغير مدرسة الديوان تأثر إيليا أبو ماضى بروح المعرى وتأثربه الهمشرى ووجد كل هؤلاء الشعراء في معاناة أبي العلاء دليلا على وجود الشر في الحياة وكما وجدوا في تاملاته وآرائه صدى لما يودون قوله ويميلون إليه في تفسير الحياة .

يقول الهمشرى هذه الأبيات التي يعرض فيها رؤية الرومانسيين لقضية الشر في الحياة وتعكس هذه الأبيات مدى تأثره بروح أبي العلاء المعرى التي تبدو حتى في اختياره للألفاظ ، ونعته للحياة بـ (أم دفر) وهى – كما سنرى لاحقا - صفة الصقها أبو العلاء بالحياة في شعره ، يقول الهمشرى :

جبلت هذه الحياة على الشر ... وإن كان ناميا في الخير
وأرى الخير من ثمار ضرار ... وجدت خصب أرضها في الشر
أن هذا التراب وهو قبيح ... فاح من روحه أريج العطر
ليس هذا النعيم غير شقاء ... فحذار حذار من أم دفر[3]

---

(١) " أغانى الحياة " / ص ١١٥.
(٢) ليوكولاى برديانييف . العزلة والمجتمع / ص ٩٨.
(٣) ديوان الهمشرى . جمع وتحقيق صالح جودت . الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٤م . ص ٧٦ ، ٧٧

وإذا كان الرومانسي قد اطمأن إلى تغلغل وجود الشر في النسيج الكوني فهو لم يطمئن إلى أسباب وجود هذا الشر ، وهيمنته على الكيان البشري ولم يطمئن إلى أن حقيقة هذا الوجود ستتبدى له يوما ما ، بل انه يزداد ألما أن أدراكا لماهيته ، ولعل المادية الوحيدة التي يرتضيها الرومانسي للإنسان هي الضعف والتخاذل أزاء قوى الكون كله ، وهي بوجه عام غير متكافئة مع ما يلقاه الإنسان في الحياة والموت ، وكان التيجاني يوسف بشير وصالح الشرنوبي وعبد المعطي الهمشري وايليا أبو ماضي ، وبدر وشاكر السباب - في مراحله الشعرية الأولى - كانوا من الشعراء الرومانسيين الذين تحتفي قصائدهم بتصوير الصراع بين الضعف الانساني وقوى الوجود ، وكان هذا الصراع ، دافعا لكثير منهم إلى مشاعر الضياع والعبث والعدمية ، بل أفضى ببعضهم - كاليجاني يوسف بشير - إلى الحيرة الشاكة في مغزى الوجود التي ما لبثت أن انقلبت إلى اطمئنان صوفي ويقين مصدره العاطفة أكثر من العقل ، ولعله ظل طويلا تصارعه هاتان الحالتان الشعوريتان.

وإذا كان العامل الميتافيزيقي مصدر اغتراب الوجودي ومصدر اغتراب الرومانسي معا ، فإن الباعث وراء البحث عن الحقيقة يختلف لدى كل منهما ، فهو إذا كان بحثا تغلب عليه الرغبة الفكرية في المعرفة - وان كان مشوبا برغبة عاطفية بالطبع - فهو بحث عاطفي عند الرومانسي ، بحث لغير وجه الحقيقة بل لتبرير الشكاية واستعذاب العذاب ، والتأكيد على ضعف الإنسان لفشله في فهم مغزى وجوده ، هو بحث يرتجى منه الفشل الذي يبرر الحزن والتهويم والانفصال عن الواقع وتعني المسئولية والإرادة عن الإنسان خاصة مسئولية الفعل ويقول الشرنوبي عن الحقيقة أنها عنقاء وهكذا تبدو في شعر الكثيرين منهم .

أنا لست بالعنقاء أول مولع ... هي مطمع الدنيا كما هي مطمعي
فتشت جيب الفجر عنها والدجى ... وطلبتها عبر الجهات الأربع[1]

لكن متناقضات الوجود الانساني الباعثة على الاغتراب يعاني منها كل من الرومانسي والوجودي معا ، فالرومانسي يستشعر " حالة من التأمل

---

(١) ديوان صالح الشرنوبي . تقديم . د. عبد الحي دياب مراجعة د. احمد كمال زكي . دار الكتاب العربي بالقاهرة ١٩٦٦ / ص ٣٢٤ ، ٣٢٥.

والمعاناة والجهد الفكري والشعوري يمتزج فيها فكر الشاعر المدرك لتناقضات الوجود باحساسه بأن عمره قصير ، ومن ثم يتبدى له مصير وجوده الانسانى ، فهو وجود من اجل الموت.[1] . أي ينتهى إلى مثل ما انتهى اليه الوجودي من اطمئنان إلى أن قانون العدم هو الغالب على الوجود ، ومن ثم فهوة يعانى " جو الرومانسية الوجودية" [2]هذا الإحساس بتناقضات الوجود الانسانى دافع الرومانسي إلى البحث عن عوالم أخرى تناوئ الواقع وتبرزه في الانسجام والتجانس الجمالى والمثالية ، ... والفردوس أو الوطن الأول على قمّة هذه العوالم المرتجاة .

كما يهرب الرومانسي إلى الطبيعة والطفولة والذكرى البعيدة وعالم الأساطير والسحر ، وكل ما يوفر له العزلة المادية والروحية ، واستعاضة عن الواقع الناقص العاجز ، يقول جبران خليل جبران :

" انا غريب ، وفى هذا العالم انا غريب ، وفى الغربة وحدة قاسية ، ووحشة موجعة ، غير أنها تجعلنى افكر دائما في وطن سحري لا أعرفه ، وتملأ أحلامى باشباح أرض قصية ، ما رأتها عينى"[3]

والموت لحد عوالم السحر القصية للمغترب الرومانسي ، بل هو كما يقول صاحب الرؤية الرومانسية للمصير الانسانى [4]- هو - العالم الفني لذواتهم المحبطة المقهورة ، هو الملجأ المنيع ضد اضطرابات الواقع . واستعصاء الوجود على التفسير . " كانت الرؤية الرومانسية للموت انطلاقا من الواقع الفردى للشاعر ممثلا في طبيعته الجسمية والفكرية والنفسية ، كما كانت امتزاجاً مع هموم واقعة الاجتماعي الذي انعكس على نفسه"[5]

ويبدو الموقف المتناقض عاطفياً من الموت في قول الشابى :

لو كان هذا الكون في قبضتى ألقيته في النار ، نار الجحيم

---

(١) طلعت عبد العزيز . الرؤية الرومانسية للمصير الانسانى لدى الشاعر العربي الحديث الهيئة المصرية العامة للكتاب / ١٩٨١م / ص ٨٥ / ٨٦ بتصرف.
(٢) السابق / ص ١٧١.
(٣) جبران خليل جبران . العواصف / مكتبة صادر بيروت / ١٩٥٠ / ص ١٨٣ ، ١٨٤.
(٤) طلعت عبد العزيز / الرؤية الرومانسية للمصير الانسانى لدى الشاعر العربي الحديث ص ٢٩٨ ، ٢٩٩.
(٥) السابق / ص ٢٩٩ / ٣٠٠

ما هذه الدنيا ، وهذا الورى وذلك الأفق وتلك النجوم
النار أولى بعيد الأسى ومسرح الموت وعش الهموم[1]

فالموت وسيلة تمرد على الحياة ، وسيلة لنجاة الروح من دنس الواقع وتناقضاته ، وابو القاسم الشابى يعزى به الإنسان ويزينه في عينه دواء من آفة الحياة يقول في قصيدة " إلى الموت ".

صبي الحياة الشقى العنيد الا قد ضللت الضلال البعيد
أتنشد صوت الحياة الرحيم وانت سجين بهذا الوجود
وتطلب ورد الصباح المخضب من كف حقل جديب حصيد
إلى الموت أن شئت هون الحياة فخلف ظلام الردى ما تريد[2]

لكن عالم الموت مخيف ، لا يجد فيه الرومانسي – إذا نظر إليه بتجريد وعمق – أية سمات سحرية وهو عالم للهرب إذا غلب التمرد والغضب واليأس على الرومانسي ، الغالب على نفسه حب الحياة ، لأنها ذات قوة جذب عظيمة ،والنزوع إليها سمة الضلوع الإنسانية والأفندة ، ولعل الرومانسي يؤكد مدى تمكن حب الحياة منه بسعيه إلى مثاليتها ، وجهده في أن يراها " يوتوبيا" هذا الجهد وهذا السعى يزيدان من تشبثه بالحياة دون أن يدرى – ولعله يدرى هذا حين يقف من الموت موقفا أخر مغايراً لما سبق ، فيرى الموت استلابا للجمال البشرى ، والنماء الانسانى والسعى وراء الجمال المطلق ، يرى الموت في كلمة واحدة هي " البلى " وتحول الكيان البشرى إلى عوالم التشوه ، والقبح والتحرل ، والشابى في قصيدة " حديث المقبرة" يبدو شديد القرب من روح أبى العلاء الفزعة من تحلل الجسد واتساخ بنيه الوجود بالجثث وبقايا الكائنات ، وتهدم بنى النجوم والأفلاك ، كما يبدو في فزعه قريباً من صرخات الأدباء الوجوديين ، يقول في هذه القصيدة :

كبير على القلب هذا العناء وصعب على القلب هذا الهمود
ابسطو على الكل ليل الفناء ليلهو بها الموت خلف الوجود[3]

---

(١) ديوان صالح للشرنوبى /ص ٤١٤ / ٤١٥.
(٢) " اغانى الحياة " /ص ٧٦.
(٣) " اغانى الحياة " /ص ١٣٧..

يبدو الموت موقفا حتميا ، يبدو اشكالية حين يمثل الغصة ، ويلد صعوبة العيش ، فهو حتمية تفضي على بالإنسان إلى الفناء . وهو أن انتفى عن الحياة يفزع الحى لأنه سيواصل عيشه ضنكا إلى ما لا نهاية ... يقول الشابى في ذات القصيدة أيضا واصفا هذه الاشكالية:

تبرمت بالعيش خوف الفناء ولو دمت حيا سئمت الوجود [1]

لكن مأساة الموت هي أنه ينتزع جمال المعاناة وجمال الترقب والحلم من الوجود الإنساني ، لذا يقول الشرنوبى :

رأى نفسه ليته ما راى وعاش على جدبه ظامئا
لقد راعه أنه زائل ستفنى المنية ما أنشا
واذهله أن ايامه زوارق لا تعرف المرفا
تمر بها صرخات الرياح فتحطم مصباحها المطلقا
ويجهض ربانها بالصلاة فيغرقها الموج مستهزئا [2]

أن الشاعر هنا مغترب في الحياة ، مغترب بالموت هكذا يؤكد أنه لم يجد في الحياة والوجود والزمان مرفا يرتاح إليه والإنسان يروعه في الحياة امران : هما الحياة والموت ويفجعه أكثر في الحياة أنها لا تبالى بموت البشر ، فالموت يطوى الإنسان تحت التراب بينما تظل الحياة في ركابها غير غائبة بموته[3]ـ وهو معنى متداول في كتابات الوجوديين ويكاد يكون ميزة لشعر أبى العلاء المعرى فالانشغال بالذات يجعل صاحبها يستكثر ها على المعاناة ، قما بالنا بعوامل الفناء والبلى ، والإنسان عامة يظن انه سيعانى الموت بذات هيئته الموجود بها في الحياة اي سيعانيه حيا ـ ويزداد سخطه على الموت كلما كان صاحب رؤى وابداعات وروح متميزة لأنه في هذه الحال أكثر ولعا بذاته ، وضنابها.

ولا نعدم في الشعر الرومانسي روح العدمية واليقين من أن حقيقة الحياة وعلتها الغائية الوحيدة هي للموت فقط ـ يقول الشابى في قصيدة " شجون"

---

(١) " أغانى الحياة " ص ١٣٧
(٢) ديوان صالح الشرنوبى ص ٤١٤ ، ٤١٥
(٣) الرؤية الرومانسية للمصير الانسانى لدى الشاعر العربي الحديث / ص ٨٩ / ٩٠ بتصرف .

عجبا لي أود أن افهم الكون ونفسي لم تستطيع فهم نفسي
لم افد من حقائق الكون الا أنني في الوجود مرتاد رمس [1]

والاحساس بالعبث والسام يتمكن من الروح الرومانسية ويشيع في شكاواها ، ويقول الشابى في قصيدة " الأشواق التائهة " ، باغيا عن الوجود أي معنى غير معانى الفناء :

لم اجد الوجود الا شقاء سرمديا ولذة مضمحلة
سام هذه الحياة معاد وصباح يكر في اثر ليلة [2]

الموت اذن عامل من عوامل تمرد الرومانسي على الحياة مثلما كان عاملا اساسيا لتمرد الوجودي ، فالموت تشويه لوجه الحياة ، تحقير للسعى الانسانى في رؤية الوجوديين والرومانسيين ، هو دافع إلى الشعور بالعبث والخواء والتفاهة واللاجدوى .

وإذا كنا رأينا للابداع قيمة عالية عند الوجوديين ، فإن الشعر أيضا لدى الشاعر الرومانسي لا تقف حدود قيمته عند الافضاء واحتواء قضايا الذات ، بل هو تجميل للواقع ومعين على رحلة الحياة الشاقة ، الشعر يحمل مسئولية خلق العالم المثالى للشاعر الرومانسي ذاته ، بعيدا عن الموت والحياة معا، وفى قصيدة " قلت للشعر" يرى الشابى في الشعر ملامح الطفولة ، وملامح النجوم والضباب والظلام ، ومشاعر الحنين الغامضة ، يرى في الشعر كل إمكانية وقدرة عجز عنها الواقع ، أو حددها الموت بالانتهاء ، يقول - بما يهمنا تذكره عند الحديث عن مفهوم أبى للعلاء للشعر وقيمته عنده :

أنا لولاك لم اطق عنت الدهر ولا فرقة الصباح السعيد
أنت ما نلت من كهوف الليالى وتصفحت من كتاب الخلود [3]

مررنا في هذه الصفحات القليلة بالمعنى اللغوى لمصطلح الاغتراب وتطوره الدلالى في البيئات المختلفة ن خاصة في بيئة علم النفس والاجتماع والفلسفة ، ورأينا معانى هذا المصطلح في بيئة منها والعوامل التي تؤدى إليه

---

(١) اغانى الحياة / ص ١٠٨.
(٢) اغانى الحياة / ص ١١٢ ، ١١٣
(٣) ديوان أغاني الحياة / ص ٨٧.

من خلال علاقة الفرد بالمجتمع وعلاقته بقضايا الوجود الفلسفية ، ووقفنا وقفة خاصة عند الاغتراب في الفلسفة الوجودية لأن الوجودية أولت اهتماما كبيرا للاغتراب وقضاياه المختلفة ، وكانت أوضح الفلسفات تناولا له ، كما كانت اقرب الفلسفات إلى طبيعة الشعر التي هي موضوع دراستنا أن شاء الله.

ولما كان لابد من وقفة عند الاغتراب من وجهة نظر شعرية لوصف اغتراب الشاعر ، اعتقدنا أن الاغتراب الرومانسي أكثر وضوحا وصلة باغتراب الوجودي ن وان اغتراب الرومانسي يستطيع أن يكون مثالا لاغتراب كل شاعر إذا مانحينا جانبا المغالاة العاطفية للرومانسيين ، فالرومانسى نموذج بالفعل للطبيعة الخاصة للشاعر وعلاقته بالمجتمع المادى وبالوجود ككل ... ، و هذه الوقفة القصيرة غير المفصلة ، نرجو أن تكون قد حددنا ماهية الاغتراب وعوامله وأنواعه ونتائجه الشعورية من خلال هذه البيئات المختلفة بما يكفل لنا أن نبحث في شعر العصر العباسى عن ماهية اغتراب الشعراء بما يعين في كشف مفهوم الاغتراب في شعر المعري.

obeikandl.com